ويبدو الشاعر مضطربا إذا ما اشتد التعارض بين القيم كجزء من الواقع الذى يضبط حركة الشاعر نفسه ، وبين فلسفة الحياة اللاهية المتطرفة ، ولا أشد بلاهة من الشاعر هنا حين يحاول الولوج إلى تلك الفلسفة من خلال افتراءاته الدينية وكأنه يبدو حريصا عليها وهو - فى الحقيقة - يحمل لها كل معاول الهدم والدمار ليقضى عليها حتى من أعماقه ، فإذا بأبى نواس وأفراد عصابته يتخذون من الإرجاء ستارا يغطى فلسفتهم ، ولعله إرجاء بدا شريكا للكفر أو أخاً له على النحو الذى صوره نصر بن سيار فى قوله منذ انتشر الإرجاء فى العصر الأموي مخاطبا فرقة المرجئة :

إرجاؤكم لَزَّكُمْ والشركَ فــــى قَرَن   فأنتمُ أهلُ إشراكٍ ومُرْجُونــــــا

فإذا بأبى نواس يحاول الجمع بين المتناقضات أو بين الإيمان والفسق ، من خلال صيغة تبدو غاية فى الغموض ، إذ لاتكاد تجد لها مسّوغا يدعو إلى قبولها ، مما يتناثر بين ثنايا أبياته الكثيرة التى تسجل طموحه العبثى فى العفو الإلهى المطلق ، واتخاذه مشجبا يعلق عليه آثامه وجرائمه الأخلاقية ، وكأنه أباح لنفسه بذلك أن يكون داعية إلى فوضى مطلقة يجدد فيها أنغام الوثنية الجاهلية وما فلسفه شعراؤها من أمثال طرفة والأعشى وعدى وغيرهم، وما عكسه بيت الختام للخمرية حين يضمنه صورة النادم على فعله على منهجه فى التائية المشهورة حين يختمها قائلا :

فَقَدْ ندمْتُ على ما كانَ من خَطَــلٍ   ومن إضاعة مكتوبِ المَواقيــــت

أدعُوك سبحانكَ اللهمُّ فاعْفُ كمـــا   عفوتَ ياذا العُلىَ عن صاحب الحُوتِ

فإذا ما استدرنا ثانية إلى مقولة « فوللر » وجدناها متسقة - أو تكاد - مع مثل هذا السلوك النواسى الذى خلط بين الأشياء جدها وهزلها خلطا صبيانيا ، مما كاد يفقدها كل صور الاتزان والتعادل الذى يجب أن يتهيأ لها ، فإذا بالمنطلق واحد إذا أخذنا بما عرضه قول « فوللر » حول مؤاخذة السالكين لنظير هذا الاتجاه فى عصرنا إذ يصورهم « ينطلقون من أن تدرك كل شئ عن طريق مغفرة كل شئ ، إنهم يدركون كل شئ ، إنهم يبخسون كل شئ ، إنهم يقولون ليس ثمة ما نغفره ، إنهم يتبنون الضلال ليقولوا فى تحدٍّ : وما الخطأ فى ذلك ؟!»[1].

ثم يُصدر «فوللر» حكمه على هؤلاء فى تماديهم فى رعونتهم وغيِّهم واستمرارهم فى

(١) خمسة مداخل إلى النقد ٧١ .